

## الإسلاميون

### بشير نافع

بيروت: الدار العربية للعلوم ومركز الجزيرة للدراسات، 2010. 295 صفحة.

ومطلع القرن الحادي والعشرين. وقد عمد المؤلف في مقدمة الكتاب ومن غير أي شرح، إلى استخدام مصطلحات "الإسلاميون في مصر وباكستان" أو "الإسلاميون السودانيون" أو "الإسلاميون الأتراك"، واعتبر "أن قوة الإسلام السياسية ترتبط ببروز قوى الإحياء والصحة الإسلامية التي شهدت مصر في عشرينيات القرن المنصرم تأسيس جمعيتين من أهم جمعياتها، هما: (جمعية الشبان المسلمين) و(جمعية الإخوان المسلمين) (ص 11). وتوسع الكاتب لاحقاً ليشمل في حديثه عن "الإسلاميين" جميع الحركات الإسلامية السياسية أو الجهادية وصولاً للقاعدة وقوى المقاومة في لبنان وفلسطين وأفغانستان، إضافة للحركات الإسلامية الإصلاحية في تركيا والسودان والأردن والمغرب، الأمر الذي يعني أن هذا المصطلح يشمل جميع التيارات السياسية الإسلامية. ويختم المؤلف مقدمته بالقول: "سيحاول هذا الكتاب الإجابة عن بعض الأسئلة التي تثار حول ظاهرة الإسلام السياسي: من هي القوى الرئيسية والأكثر تأثيراً في الساحة الإسلامية السياسية؟ كيف ولدت وفي أي سياق؟ إلى أين تمتد جذورها وما هي مصادر استلهامها؟ وهل تلتقي جميعها على خطاب وأفكار واحدة أم تتعدد وتفترق؟... وهل وصلت القوى الإسلامية السياسية إلى نهاية الطريق أم أن ثمة دوراً لا يزال ينتظرها؟" (ص 17).

إن مصطلح "الإسلاميين"، إذاً، يشمل الحركات السياسية والجهادية الإسلامية كلها، بغض النظر عن أفكارها أو وسائل عملها أو تكتيكاتها، وهذا ما سعى الكاتب للتوسع في الحديث عنه.

### من "الآباء الإصلاحيين إلى العنف العابر للثقافات"

في تفصيل الكلام على التيارات الإسلامية السياسية التي تطرق إليها المؤلف، تضمن الكتاب 13 فصلاً وخاتمة، ينطلق الكاتب منها للحديث عن "الآباء الإصلاحيين"، ثم يعود إلى جذور الحركات الإسلامية ودور العلماء والمصلحين الكبار منذ القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، كولي الله الدهلوي (1703 – 1762)، ومحمد بن عبد الوهاب (1703 – 1792)، ومحمد بن علي الشوكاني (1760 – 1834)، وأبي الثناء الألووسي (1802 – 1854)، ليعود إلى الحديث عن عدد

يعود الدكتور بشير موسى نافع في كتابه "الإسلاميون" إلى الجذور الأساسية لانطلاقة الحركات الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي، وذلك لفهم الأسس الفكرية التي انطلقت منها هذه الحركات، والأوضاع الأساسية التي ساهمت في تكوينها وتطورها. ويشرح نافع في كتابه كيفية تطور الحركات الإسلامية من "نشاط إصلاحي" قاده علماء ومفكرون في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، إلى حركة تتبنى العنف العابر للثقافات في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين. ويسعى نافع في كتابه هذا (وهو في الأصل مادة معلوماتية استُخدمت لإنجاز فيلم وثائقي عن ولادة التيار الإسلامي السياسي) لإعادة فهم الظاهرة الإسلامية من خلال فهم المتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي مر بها العالم العربي والإسلامي مع بداية تراجع دور الخلافة العثمانية، وبدء السيطرة الاستعمارية، وصولاً إلى الاحتلال السوفياتي ثم الأميركي لأفغانستان، وغزو العراق، مروراً بقيام الجمهورية الإسلامية في إيران، والحكم الإسلامي في السودان، وبروز المقاومة في لبنان وفلسطين.

### من هم الإسلاميون؟

لا بد بداية من التوقف أمام المصطلح الذي اعتمده المؤلف لتوصيف الحركات الإسلامية، والذي اختاره عنواناً لكتابه، أي "الإسلاميون"، فمن المتعارف عليه أن هناك عدة توصيفات ومصطلحات اعتمدها الباحثون والكتاب الغربيون أو العرب عند الحديث عن التيارات الإسلامية بمختلف اتجاهاتها، ومنها: الأصولية الإسلامية؛ الإسلامية؛ الصحة الإسلامية؛ التيار الإسلامي السياسي؛ الجماعات الإسلامية؛ وغيرها من المصطلحات. وفي هذا الميدان لم يشرح الكاتب أسباب اختياره مصطلح "الإسلاميون" للتعريف بالحركات الإسلامية السياسية، أو بالتيار الإسلامي السياسي، ولم يحدد الخلفية التي انطلق منها لتحديد من هم "الإسلاميون"، وإن كان كرر، في مقدمة الكتاب الحديث عن "الإسلام السياسي" وعن "القوى الإسلامية السياسية" في العالمين العربي والإسلامي التي كان لها شأن مهم في الواقع السياسي في العقود الأخيرة من القرن العشرين

كبير من العلماء أمثال الشيخ محمد عبده، والسيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، ومحمد حسين النائيني (ص 21).

وفي الفصل الثاني والثالث تحدث المؤلف عن "الإخوان المسلمين" في مصر ودور الإمام حسن البنا، وتوقف عند نشوء حركة الإخوان ونشاطهم السياسي والجهادي وأسباب الخلاف مع الرئيس جمال عبد الناصر، والأخطاء التي ارتكبتها الإخوان والحكومة المصرية، والتي أدت إلى الصراع السياسي والأمني الطويل بين النظام المصري والإخوان (ص 49)، ليعرض بعد ذلك للعلاقة بين الإخوان والرئيس أنور السادات والأزمات المتلاحقة التي مرت بها هذه العلاقة. ثم أفرد الكاتب الفصل الرابع لنشوء حزب التحرير بقيادة الشيخ تقي الدين النبهاني والدور الذي أداه في بلورة الفكر السياسي الإسلامي. وبعد أن عرض المؤلف تاريخ الحزب وتطوره وعلاقته بالتيارات القومية والإسلامية، أشار إلى عودته إلى الساحة السياسية مجدداً في العديد من أنحاء العالم (مصر؛ بريطانيا؛ آسيا الوسطى)، ورأى "أنه بالرغم من الضجيج الذي أحاط بالعديد من الأحداث التي ربطت بحزب التحرير فمن المبالغة القول إنه يشكل تهديداً للأوضاع القائمة في أي من مناطق نشاطه، ولكن ربما من الصحيح القول بأن الحزب مصدر إزعاج وقلق محدودين للحكومة وأجهزتها الأمنية، وليس للأنظمة وحسب، بل وللقوى والشخصيات الإسلامية الأخرى" (ص 63).

ويتحدث الكاتب في الفصل الخامس عن دور الجماعة الإسلامية في باكستان ومؤسسها أبي الأعلى المودودي. ومع أن هذه الجماعة نشأت استجابة للأوضاع التي واجهها المسلمون في شبه القارة الهندية، وخصوصاً في الصراع من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية، فإن أفكار مؤسسها تركت آثارها في العالم الإسلامي، ولا سيما مصطلحات "الحاكمية والألوهية والمفاصلة" (ص 86). وقد كانت هذه المصطلحات من ضمن الأفكار التي تبناها أحد قياديي الإخوان المسلمين في مصر، أي سيد قطب الذي يخصص له الكاتب فصلاً خاصاً هو الفصل السادس يعرّف فيه تأثير سيد قطب في الجماعات الإسلامية المتشددة، باعتباره أحد رموز التيار الإسلامي الجهادي الذي كان المنطلق الأساسي للجماعات التكفيرية، ثم لبروز الجماعات الإسلامية المسلحة (ص 113).

ومن مصر ينطلق الكاتب في الفصل الثامن إلى الثورة الإسلامية الإيرانية التي برزت في سنة 1979، وإن كانت جذورها الفكرية والسياسية تعود إلى بدايات القرن العشرين، والتي شهد قائدها الإمام الخميني "السنوات الأخيرة من الدولة القاجارية والفوضى التي عاشتها إيران نتيجة الحكم وطمع

القوى الدولية. كما كان واعياً للطريقة الانقلابية غير الشرعية التي استطاع بها عسكري مغمور هو رضا خان الاستيلاء على السلطة في العام 1921، ومن ثم القضاء على معارضيه وتأسيس حكم استبدادي جديد" (ص 116). وبعد أن عرض الكاتب التطورات والأحداث التي مرت بها إيران وثورة الإمام الخميني، وصولاً إلى قيام الجمهورية الإسلامية وما شهدته من أحداث، يختم بالقول: "فقدت الجمهورية الإسلامية كثيراً من وهجها، على أن هذا لا ينفي محافظة حكمها على استقلال القرار وتمتع شعبها بقدر ملموس من الحريات" (ص 132).

لكن تأثير إيران الأهم جاء في المملكة العربية السعودية التي يخصص لها الكاتب الفصل التاسع، فيتناول فيه نشوء الحركات الإسلامية فيها انطلاقاً من حركة جهيمان بن سيف العتيبي التي اندلعت أحداثها في 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1979 في الحرم المكي، ثم يعرض تطور الحركة الإسلامية في السعودية وتنوع اتجاهاتها ومواقفها وعلاقة بعضها بـ "الجهاد الأفغاني" الذي أسس لاحقاً لتنظيم القاعدة. أما الفصل العاشر فيخصصه الكاتب لظاهرة انتشار العنف لدى التيارات السياسية الإسلامية، وخصوصاً الصراع بين الإخوان المسلمين والنظام في سورية انطلاقاً من أحداث مدينة حماه في سنة 1982، وما شهدته سورية من صراع أمني وعسكري استمر أعواماً طويلة، ثم امتداد العنف إلى مصر والجزائر لأسباب مختلفة. وفي موازاة العنف الداخلي الذي مارسه الإسلاميون في مصر وسورية والجزائر، يتوقف المؤلف أمام ظاهرة "الإسلاميون المقاومون" في الفصل الحادي عشر، كي يعرض دور الحركات الجهادية في أفغانستان ولبنان وفلسطين.

أما في الفصل الثاني عشر فيتعقب المؤلف تجربة الإسلاميين السودانيين وثورة الإنقاذ التي تمت من خلال انقلاب عسكري في سنة 1989، ثم يعود إلى الحديث عن العنف المتجدد والعاث للقرارات في الفصل الثالث عشر، والذي برز من خلال اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر 2001، فيرصد أدوار تنظيم "القاعدة" وأسامة بن لادن والشيخ عبد الله عزام وأيمن الظواهري.

وفي الفصلين الرابع عشر والخامس عشر، يتناول المؤلف التيارات الإسلامية التي ظهرت في السعودية والكويت والمغرب والأردن ومصر، والتي اعتمدت العمل السياسي للوصول إلى السلطة أو لإصلاح النظام، وإن كانت واجهت كثيراً من العقبات والمعاناة، الأمر الذي أوصلها إلى الحائط المسدود. وفي الفصل السادس عشر يركز الكاتب على التجربة الإسلامية التركية وكيفية نجاح الإسلاميين في الوصول إلى الحكم وتحقيق إنجازات مهمة عبر العمل السياسي واعتماد

الانتخابات البلدية والنيابية، ويشير إلى أهمية هذه التجربة بالتالي: "ربما أصبح من الممكن القول إن تركيا العدالة والتنمية قد تصالحت أخيراً مع نفسها، وليس هناك من شك في أن نجاح أو فشل تجربة ((العدالة والتنمية)) سي طرح سؤالاً أكبر حول ما إن كان المثال التركي صالحاً للاستعارة والتطبيق في مناطق أخرى من العالم الإسلامي" (ص 272).  
أمّا خاتمة الكتاب فحملت عنوان "الإسلاميون والمستقبل"، والتي يشرح فيها المؤلف الإشكالات التي تواجه التيارات الإسلامية السياسية أكانت خارجية أم داخلية ليصل إلى النتيجة التالية: "من الواضح أن القوى الإسلامية السياسية تثير من القلق أكثر مما يثيره فساد واستبداد النخب الحاكمة. هذا التدافع متعدد الأبعاد بين التيار الإسلامي والنخب الحاكمة والقوى الخارجية يعتبر أحد أهم أسباب عدم الاستقرار في المجالين العربي والإسلامي، وإلى أن تترك القوى الكبرى العالم الإسلامي وشأنه، وتترك النخب الحاكمة ضرورة فتح المجال للتداول السلمي على الحكم، فسيكون مخاض التغيير طويلاً وشاقاً".

#### ملاحظات واستنتاجات

بعد هذا العرض السريع لأهم فصول الكتاب وما تضمنه من محطات مهمة في تطور التيارات الإسلامية السياسية والجهادية، يمكن القول إن بشير نافع نجح في تقديم رصد مكثف لتطور الحركات الإسلامية بمختلف تنوعاتها في العالمين العربي والإسلامي، كما نجح في وضع أصبعه على أسباب فشل هذه الحركات أو نجاحها، والعقبات التي

واجهتها. وقد اعتمد المؤلف أسلوباً يجمع بين العرض والسرود السريع والمكثف للمعلومات وللأحداث التاريخية، وبين التحليل والقراءة الموضوعية والمنهجية لهذه الأحداث، الأمر الذي يؤدي إلى الوصول إلى استنتاجات مهمة على صعيد الإشكالات التي واجهتها الحركات الإسلامية، وخصوصاً الصراعات مع الأنظمة والقوى المسيطرة في العالمين العربي والإسلامي. ومع أن الكاتب أغفل بعض التجارب الإسلامية كتجربة حزب الدعوة الإسلامية، والتيارات الإسلامية في العراق، وبعض التجارب الإسلامية في عدد من الدول العربية والإسلامية، فإن هذا الكتاب يشكل دليلاً عملياً ومنهجياً لتطور الحركات السياسية الإسلامية، وللأسس التي اعتمدها هذه الحركات في أدائها السياسي والجهادي.  
إن أي قراءة موضوعية وهادئة لكتاب "الإسلاميون" يمكن أن تقدم للمنتهين إلى التيارات الإسلامية، وإلى القوى والتيارات الأخرى (القومية والماركسية والعلمانية)، مجموعة كبيرة من الأفكار والاقتراحات العملية لمعالجة الأزمات التي يواجهها العالمين العربي والإسلامي. والملاحظة الأهم التي يمكن التوصل إليها هي أن العنف والعنف المضاد لم يكونا في يوم من الأيام سبباً لمعالجة الأزمات والمشكلات، بل إن اعتماد الديمقراطية والصراع السياسي وتداول السلطة والحوار المباشر هو الطريق الوحيد لمعالجة هذه الأزمات.

قاسم قصير  
كاتب لبناني